ثقافة الهند

يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية

المجلد الخامس | يونيو سنة ١٩٥٤ | العدد الثانى

محتويات هذا العدد

الموضوع




من كتب التاريخ

إن الادبّ العربى الباحث عن التاريخ. أدب متسع النطاق قيم الجانب، فللكاتب فى هذا القسم حق أن يشعر لنفسه من فضل وفخر على ما كتب وألف. وليس الأدب التاريخى العربى مما جادت به القرائح العربية وحدها، فقد اشتركت فى وضعها أقطار أخر. ولكننا بصلتنا بالهند سنقدم فيما يأتى بما تبرعت به الهند إلى الأدب العربى من الكتابة فى التاريخ.

جل ما كتب علماء الهند فى التاريخ كتبوه باللغة الفارسية. فالذين كتبوا بالعربية نراهم كالمستثنيات قليلين عديدين، على أن الفارسية وضعت ما يفوق مأتين من الكتب التاريخية. وهذا ما عدا المؤلفات والمطويات فى تذكرة الشعراء وسوانح العلماء والأولياء. وكانت اللغة العربية بما كان لها من فضل وسيطرة فى أوائل قرون الاسلام لغة الكتابة والتصنيف، فى الدين وفى العلوم وفى الفلسفة على وجه العموم حتى داخل بلاد فارس وتركستان وأفغانستان، ولكنها لم تنل من الاعجاب والتقدير فى تلك الأيام ما نالتها الفارسية فى الشعر وفى التاريخ وفى الأدب العامى. وذلك نفس ما وقع فى الهند.

فمما وضعت الهند فى التاريخ باللغة العربية تستحق الذكر أربعة عشر كتابا طبق ما يأتى:

فى التاريخ جوهريا	٤
فى التاريخ	١
فى السيرة النبوية	٣
فى سوانح أخرى	٥
فى الرحلات	١

كتب التاريخ جوهريا — ٤

١ — «تحفة المجاهدين» للشيخ زين الدين[١] بن عبد العزيز المعبرى، وقد عرفناه فيما مضى عند ذكر كتاب قرة العين فى فصل الفقه. وهو كتاب يبحث عن تاريخ الأعمال والاجراءات التى قام بها برتكيز فى مليبار منذ ما دخلوها أيام ١٤٩٨ - ٩٠٤ إلى ١٥٨١ - ٩٥٩، ويتضمن على أربعة أبواب:

١ — هو الشيخ زين الدين بن عبد العزيز بن زين الدين أبو يحيى بن على بن أحمد المعبرى، عائلته عائلة علم وشرف عائلة الورع والتقوى. يعرفها أهالى مليبار تعرف «مخاديم فنانيه» حتى اليوم، يعود عهدها بالهند إلى أيام كان السلطان بهلول على عرش دهلى وكان الحكم فى دكن لمحمد شاه الثالث من سلالة بهمن، إن على بن أحمد المعبرى وهو الجد الأعلى للعائلة قدم مليبار ونزل بلدة كوشن (كوچين) ولما توفى هو ارتحلت عشيرته من كوشن إلى فنان (پونانى) يصحبها القاضى زين الدين إبراهيم ابن احمد واستوطنت هناك.

ولد الشيخ زين الدين أبو يحيى فى ١٣ من شعبان سنة ٨٧٣ هـ فى كوشن وعندما بلغ الحلم فى فنان تعلم المباديات فى البيت، ثم سافر إلى كاليكوت مركز رجال العلم والفن والفضل فى تلك الأيام وقد حضره أجلة العلماء من البلاد العربية ومن مصر وسوريا، فقرأ الفقه وأصوله على القاضى فخر الدين أبى بكر بن القاضى رمضان الشاليانى الذى كان قاضى القضاة فى ديار مليبار. ثم قرأ الحديث على من كان من أئمة الحديث فى عهده القاضى عبد الرحمن الآدمى المصرى وحصل على اجازة الرواية.

وبنى الشيخ زين الدين أبو يحيى جامعا فى فنان وشاد حول الجامع مدرسة وزاوية، ولا تزال هذه الأبنية ومقبرة العائلة تحتها الجانبية إلى اليوم تحدث عن الذين دعوا إلى رحمة الله وكانت زاوية الشيخ قبل سيطرة برتكيز مأوى العلماء ومنزل الشيوخ والمتصوفين من البلاد العربية ومصر وسوريا ومضيفهم وكان الشيخ شهاب الدين احمد بن حجر الهيثمى ٩٠٩ هـ قد نزل فى هذه الزاوية حقبة من الزمان وعلم الطالبين بعد صلوة الظهر فى دروس التفسير والحديث. وكان الشيخ موفور النصيب من التصوف بايع أولا على يد الشيخ الجليل خواجه قطب الدين بن عز الدين الجشتى وحصل الخلافة فى طريق القادرية والجشتية، ثم بايع ثانيا على يد الشيخ ثابت بن عيسى بن محمود الزاهدى وتوفى فى ١٧ من شعبان سنة ٩٢٨ يوم الجمعة ودفن فى زاويته وله من الكتب والشروح.

١ — مرشد الطلاب — كتاب ضخم فى التصوف

٢ — سراج القلوب وعلاج الذنوب — فى التصوف، طبع فى القاهرة.

٣ — شمس الهدى — فى الوعظ والتذكير

٤ — تحفة الأحباء — فى الأدعية والأذكار بحذف الأسانيد.

٥ — شعب الايمان

٦ — ارشاد القاصدين — خلاصة منهاج العابدين للغزالى

٧ — كفاية الفرائض — خلاصة الكتاب الكافى فى الفرائض للامام أبى بكر محمد بن عبد الله الـ... المتوفى ٣٣٠ هـ

باقى على صفحة ١٣

الباب الأول فى الجهاد وما يتعلق به من الأحكام. والباب الثانى فى بداية عهد الاسلام فى مليبار ونشره فيها. والباب الثالث فى ذكر نبذة من العوائد العجيبة والتقاليد الغريبة التى اعتادها كفرة مليبار. والباب الرابع وهو البيت القصيدة للكتاب، فكان الأبواب الثلاثة الأولى كانت كالمقدمة لهذا الباب الذى ينقسم إلى أربعة عشر فصل.

وكفى تقديرا بمكانة الكتاب أنه نقله رولينڈسن إلى اللغة الانكليزية فى ١٨٣٣ أى بعد قرن بالتقريب ثم رتبه وترجمه إلى اللغة البرتكالية ڈيوڈلوپز فى ١٨٩٨. وإن التعليق الذى وضعه المترجم الانكليزى المذكور على الكتاب لأكبر شهادة على صحة رواياته التاريخية، فقد قال «مما يجعل الواضع معتبرا موثوقا به أن الكاتبين

(بقية التعليق السابق)

٨ — كتاب الصفا من الشفاء — خلاصة كتاب الشفاء للقاضى عياض
٩ — تسهيل الكافيه — شرح الكافيه لابن الحاجب
١٠ — شرح الفية بن مالك
١١ — شرح الارشاد — لمحمد بن إبراهيم الاصفهانى المعروف بابن المقرى المتوفى سنة ٣٨١ ه
١٢ — شرح التحفة — لزين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ ه

وللشيخ ثلاث منظومات شهيرة وهى: هداية الاذكيا إلى طريق الاوليا وأرجوزه فى التصوف وتحريض أهل الايمان على جهاد عبدة الصلبان.

وخلف الشيخ ابنه عبد العزيز الذى شرح منظومة والده هداية الاذكيا شرحين مجملا ومفصلا، وسمى الأول إرشاد الالباء ونسخته الخطية موجودة فى المكتبة الآصفية بحيدرآباد فى التصوف رقم ١٥٠٩ واما المفصل فقد طبع فى بولاق مصر سنة ١٢٩٢ ه

وهذا عبد العزيز هو والد الشيخ زين الدين الثانى صاحب كتاب «تحفة المجاهدين فى بعض أخبار البرتكاليين» الذى يبحث عنه الدكتور زبيد أحمد فى مقالته ككتاب تاريخى جوهريا وقد عرفه العرب أكثر من الشرق فنقله إلى الانكليزية والبرتكالية من اللغة العربية

وللشيخ ما عدا هذا الكتاب وما عدا كتاب قرة العين فى مهمات الدين الذى ذكره الدكتور فى فصل الفقه كتب أخرى وهى:

١ — إرشاد العباد إلى سبيل الرشاد، كتاب فى النصح والوعظ طبع فى مصر مرتين.
٢ — المختصر فى ذكر الموت وما بعده طبع فى مصر مرتين على حاشية كتاب الروض الفائق فى المواعظ والرقائق للشيخ الزاهد عبد الله شعيب بن سعد القمعى المصرى المتوفى سنة ٨٠١ ه
٣ — فتح المعين على قرة العين شرح كتابه على الفقه الشافعى

الغربيين يصدقون روايات الكتاب. وزد على ذلك أن الكتاب مذكرة توفق بين الخلافات التافهة فى الجزئيات وقلما تجد خلافا يستحق الذكر فى تعليل الحوادث البارزة». ثم إن الواضع لم يأل جهد أن يفحص وينقب الوقائع والحوادث عند روايتها. وعلى سبيل المثال عدما يكتب عن طلوع الاسلام فى مليبار وبدايته فيها فيأبى أن يرضى بما كان شائعا فى مواطنيه المسلمين من أن راجه مليبار خرج من بلاده مدفوعا بمعجزة شق القمر ليزور الرسول وقد أسلم.

وفضلا على ما ذكره الشيخ زين الدين من حرب السامرى فى كالىكوت مع برتكيز فهناك شرح آخر للقضية. وهى أنشودة محمد بن عبد العزيز الكالىكوثوى أنشدها تحت عنوان «الفتح المبين للسامرى الذى يحب المسلمين» فى خمسمائة وثلاثة أبيات فى نفس الموضوع. وسنذكرها عند الكلام عما تبرعت به الهند إلى الأدب العربى فى قسمة الشعر والأناشيد. ولا نعنى بذكرها هنا إلا أن ذكر التاليفين يزيد الاعتبار واليقين.

المعرب — وبما أن للكتاب من الأهمية فى الموضوع والاعتبار فى مطويات التاريخ. أرى من المناسب أن أذكر هنا موجز ما كتبه الواضع فى بابيه الثانى والثالث مضيفا إليه بعض الملاحظات التاريخية من ترجمة أردية للكتاب لشمس الله القادرى.

يقول الشيخ وهو يذكر عن بداية عهد الاسلام بمليبار إنه كانت تسكن طائفة من اليهود والنصارى مدينة كدنكلور عاصمة مليبار منذ أمد بعيد. فلعل اليهود كما تقول به أسطورة قديمة أن كيخسرو ملك إيران أجلاهم من بلاده. فخرجوا إلى مليبار ووصلوا إليها من طريق خليج الفارس ثم استوطنوا كوچين. أو كما ذكر الدكتور فورستر مستندا إلى كتاب برتكالى أنه فى سنة ٣٦٩ من الميلاد خرج جمع من اليهود من جزيرة ميورقه من الأندلس. وكانوا زهاء سبع أو ثمانى ألف

نفر، فوصلوا إلى شواطىء مليبار واتخذوا بلدة كوچين مقرا لهم. وأما النصارى، فالمصادر التاريخية تشهد أن القديس تهوما كان يبشر فى مليبار بالمسيحية، وأنه وصل إليها النسطوريون من سوريا من الجزيرة ومن كالديا كذلك. ثم نزلت بعد حقبة من الزمان عاصمة مليبار فئة من المسلمين فى سبيلها إلى سيلان مهبط أبينا آدم لزيارة قدمه. ولما بلغ ذلك ملك مليبار دعاهم وتحدث إليهم مستفسرا عن النبي الكريم، فأجاب رجل منهم، وكان شيخا كبير السن، عن سيرته صلى الله عليه وسلم وعن الاسلام وعن معجزة شق القمر، فصدق الملك بالنبي وأسلم من صميم الفواد، وأسر إليهم أنه سيرافقهم بعد ما يرجعون ليتشرف هو نفسه بمقابلة النبى الكريم، وأكد لهم أن لا يفضوا بما وقع إلى أحد فى مليبار. ولما رجع هؤلاء من سيلان أمر الملك للشيخ أن يحضر بسفينة تقله ومن معه، وعندما تم له ما أراد دعى عشيرته وأعيانه وقال: إننى عزمت الانزواء والعكوف على عبادة الله فلا يقترن أحد إياى طول أيام الأسبوع. ثم وكل أمور الحكم موزعا على رجاله وكتب لهم فى ذلك أمرا حتى لا يتعرض أحد لأحد ولا يختلف فيه إثنان. وأتبع ذلك أن ركب هو ورفقاوه فى الفلك ووصلوا فندرينة. فباتوا هناك ليلة وقضوا نهارا، ثم ابحروا إلى درمفتن ومكثوا فيها ثلاثة أيام. ثم ركبوا حتى بلغوا شحر، فنزلوا فيها أياماً سنح لهم فيها ترتيب بعثة تبشيرية تقصد ديار مليبار تدعو الناس بالاسلام وتشيد فيها مساجد لله. وإذا بالملك قد أصيب فى تلك الأيام بمرض كاد من شدته أن يذهب بحياته. فأوصى الملك الدعاة المبشرين أن لا يهن منهم العزم فيتأخروا عما عزموا عليه. فقالوا وهم شرف بن مالك وأخوه مالك بن دينار وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك: أيها الملك! إننا لا نعرف بلادك ولا نعلم منها ثغورها وإنما قصدناها لأنك معنا. فتفكر الملك مليا ثم كتب لهم باللغة الملسارية مكتوبا إلى أقاربه وعماله. ودلهم على عناوينهم وأمرهم أن ينزلوا كدنكلور، ودرمفتن، وفندينة، أو كولم. وأكد لهم أن لا يذكروا عنه كلمة من

المرض أو الموت. وعما قليل توفى الملك هناك. وبعد عامين من موت الملك توجه شرف بن مالك، ومالك ابن دينار ومالك ابن حبيب بزوجته وعياله إلى مليبار. فعندما وصلوا كدنكلور عرضوا مكتوب الملك على عامله، الذى أقطع الضيعات وأعطاهم من الروصات وفق المكتوب إليه من الملك. فسكن مالك ابن دينار وابن أخيه مالك ابن حبيب كدنكلور، وبنى هناك بعد ذلك مسجدا ثم ارتحل مالك ابن حبيب بزوجته وعياله إلى كولم حيث ترك أهله وعياله وبنى مسجداً. وخرج وحيدا حتى وصل بلدة هيلي ماراوى، وغادرها بعد بناء مسجد إلى باكنور، ومنجلور، وكنجركوت. وشيد فى كل هذه الأماكن مساجد لله. فعاد إلى هيلي ماراوى وأقام فيها ثلثة أشهر. ثم غادرها إلى شاليات، وجرفتن، ودرفتن. ثم عاد إلى كدنكلور بعد ما بنى المساجد فى كل هذه البلاد. وأخذ معه عمه مالك ابن دينار وطاف بالمساجد كلها وصلى فى كل منها. ثم عادا كلاهما إلى كدنكلور شاكرين لله على أن البلاد التى كانت تعمها الضلالة ويكتنفها الكفر أصبحت تتنور بنور الاسلام. ثم بعد ذلك غادر مالك بن دينار ومالك بن حبيب كدنكلور قاصدين كولم، ومعهما من الأصدقاء والعبيد، فأقاموا فيها، وبعد مدة مديدة ارتحل مالك بن دينار ومالك بن حبيب ببعض الزملاء إلى شحر، وزاروا هنا قبر الملك المتوفى. ثم سافر مالك بن دينار إلى خراسان حيث توفى هناك فى بعض نواحيه وأما مالك بن حبيب فعاد إلى مليبار وترك بعض أولاده فى كولم واتخذ لنفسه مع زوجته مستقرا فى كدنكلور حتى ذهبا إلى رحمة الله. وهذا ما جرى على الاسلام فى القطر المليبارى من ناحية النشر والنفوذ فى أهاليه

لا يذكر الشيخ فيما أسرد عن اسم راجه الذى اعتنق بالاسلام. ولكن هناك فى مكتبة إنديا آفس مخطوطتان منظومتان باللغة العربية مكتوبتان قبل وضع كتاب تحفة المجاهدين، نقرأ فيهما حكاية إعتناق راجه بالاسلام واستيطان المسلمين أرض مليبار وكذلك نقرأ فى واحدة منهما اسم راجه «شكروتى فرماض» وفى الأخرى

«شكروتى فرمال». فكلمة شكروتى صورة عربية لجكرورتى كلمة سنسكرتية، معناها الملك الجليل. وقد اعتاد أهالى مليبار الناطقون باللغة التاملية الخطاب بهذه الكلمة كاللقب العمومى لكل ملك.

وأما المستشرقون فيقولون أن اسم راجه الذى أسلم كان چيرومن پيرومال (Chereman Perumal). راجعين فى ذلك إلى مآخذ من لغات تامل ومليالم، فمعنى چيرومن ملك من عائلة چيرا. وفرماض وفرمال فكلاهما الملفوظان بالصوت العربى لكلمة پيرومال.

والأماكن التى ذكرها الشيخ أن مالك بن حبيب ومالك بن دينار بنيا فيها المساجد فاسمائها ومحل وقوعها فى هذه الأيام وفق ما يأتى.

١ — كدنكلور — وهى اليوم تدعى كرنگانور وتقع على مقربة من كوچين فى جنوب مليبار على ساحل البحر، بلد قديم ياتيه كان التجار من العرب والروم ذكره بطليموس باسم فررس.

٢ — كولم — ذكرها رشيد الدين أبو الفداء وكذلك ابن بطوطه وهى منتهى ثغر مليبار وكانت تسمى بـكولم لى أيام أبى زيد السيرافى وسليمان التاجر.

٣ — هيلى ماراوى — كتبها أبو الفداء راس هيلى وقد ذكرها رشيد الدين ما بين منجرور وفندرينه.

٤ — جرفتن — ذكرها ابن بطوطه أنها على بعد ثلاثة فراسخ من هيلى، وفى گزيتير أنها كانت على مقربة من صنداپور.

٥ — ده فتن — ذكرها ابن بطوطه، ويكتب گزيتير عنها أنها تقع بالقرب من تيلى چرى.

٦ — فندرينه — ذكرها ابو الفداء ورشيد الدين وكانت تسكنها قبائل يهودية أيام أبى الفداء وهى تقع فى الجنوب من كالى كوث بالقرب من بيبور على شاطىء البحر واسمها اليوم چاليام.

٧ — باكنور — ذكرها ياقوت الحموى وعبد الرزاق السمرقندى وهى من الأرياف العامرة على سواحل البحر، اسمها اليوم بركور.

٨ — منجرور — منجلور — ذكرهما الحموى وأبو الفداء وغيرهما من علماء جغرافيا وهى مدينة معروفة فى مليبار تقع على شاطىء البحر من ناحية الشمال يعرفها الناس فى هذه الأيام بـ منگلور.

ويقول الشيخ. تعليقا على قصة الملك المتشرف بالأسلام: إنه من المتعذر علينا تعيين تاريخ حدوثها بالضبط، ولكن على غالب الظن أنها وقعت بعد مائتى عام من الهجرة والأعم المشاع بين مسلمى مليبار أن ذاك الملك كان معاصرا للنبى الكريم. وأنه غادر بلاده قاصدا مكة المكرمة لمواجهة النبي وزيارته عندما رأى القمر ليلة قد انشق قطعتين، وتوفى وهو فى سبيله فى شحر. وهناك رواية أخرى فى مدفنه أنه فى ظفار، يزوره العامة من الناس والخاصة منهم، وأهالى ظفار يقولون أنه قبر السامرى.

(وظفار هذه هى بلدة فى منطقة شحر تقع على شاطىء الهند. وفى بعض كتب مابلا فى لغة مليالم أن قبر الملك فى ظفار، وأنه مكتوب على لوح قبره أن إسم راحه كان عبد الرحمن السامرى الذى سافر من مليبار وبلغ الساحل العربى سنة ٢١٢ هـ. وتوفى بعد أربعة أعوام سنة ٢١٦ هـ، وعلى هذا فقد وصل رفقاء الملك إلى مليبار بعد عامين من موته.)

والأمر المتفق بين مسلمى مليبار وكفارها هى غيبوبة الملك. فالكفار يزعمون

أن الملك صعد إلى السماء وسينزل منها على الوقت المضروب. وقد عينوا لنزوله مكانا وحفروا هناك حوضا كبيرا. وهم ينتظرون ظهوره فى ليلة معينة.

ومن المرويات بين أهالى مليبار أن الملك، قبل مغادرته العاصمة، وزع الملك على قائديه. وحدث أن القائد المسمى بالسامرى لم يكن بين يدى الملك عند التقسيم. فلما حضره متأخرا أعطاه الملك سيفه وقال نصيبك من الملك أن تأخذ قدر ما تتمكن عليه بهذا السيف. فمضى يسعى وقد تمكن بعد فترة من الزمان السيطرة على كالى كوث. واتخذها المسلمون لهم موطنا، واتبع ذلك أن تدفق إليها التجار والصناع من كل مكان وازدهرت التجارة وتوسع نطاق الحرف والمهن. فأصبحت بلدة كالى كوث مدينة راقية تسودها العظمة والشان، وأصبح السامرى بهذا التطور البارز مهاب الجانب، رفيع الجناب وموفور القوات.

كان أهالى مليبار كلهم كفرة، وكان منهم الضعفاء والأقوياء، وكان القوى منهم يأكل الضعيف ويسلب منه ما كان يملك. وأما الولاة والعمال فكانت حكومات بعضهم لا تتجاوز ما بين فرسخ واحد، وكان عند البعض من عدد الجنود مأة نفر، وعند البعض أقل من مأة نفر، وعند بعض الكفار منهم من مائتين إلى ألف نفر. وكانت من البلاد مشتركة الحكومات، فكان الولاة يخاصمون ويجادلون فيما بينهم تحت دافع القوة والضعف. ولكن المخاصمة هذه لا تحدث تغيرا ما لا فى الحكم ولا فى الثغور، ويقتصر ذلك دون كولم ومكهرى. وأما الناحية الشرقية فكانت فيها حكومات كولترى، هيلى ماراوى، حرفتن كنور، أركاث، درفتن وما دونها. ولكن أشهر الحكومات وأقواها فيها شوكة وثروة كانت حكومة السامرى، فهى كانت تفوق كل الحكومات فى القطر، والأمر فى ذلك يرجع إلى ما فى الاسلام من خير، وإلى العسكريين الأقوياء من المسلمين المعجبين بالسامرى المحببين لديه. وقد ذهب الكفار إلى أن ذلك كله من فضل الملك السابق على السامرى

وعطفه نحوه. إن أهالى مليبار ينكرون حكاية السيف، ولكن السيف يوجد عند السامرى حتى اليوم، وهو يعظمه ويجله ويحمله عند ما يخرج للحرب أو للجمع الحاشد فى مقدمة الموكب الملكى.

ويقول الشيخ، وهو يذكر فى الباب الثالث من كتابه عن ما اعتاده أهالى مليبار غير المسلمين من أغرب التقاليد ومن التعامل العجيب منذ أقدم الزمان، إنه....

— إذا حدث أن قتل الملك فى الحرب، فعساكر الملك المقتول تهوى على حدود العدو مقتحمة هاجمة إلى أن تموت أو تجعل بلاد العدو عرضة للنهب والقتل، ولذلك يخافون هناك قتل الملك.

— أهالى مليبار فى هذه الأيام على قسمين: قسم يحبذ السامرى وقسم يتحيز الملك. ولكنهما على بينهما من خلاف يهبان أمام العدو المهاجم معا، صفا واحدا، ولا يرضى واحد عن الاتصال بمؤامرة أو عملية غدر ضد الآخر، ويعدونها خيانة ووضاعة

— إذا مات كبير العائلة من برهمن أو النجار أو نائر، فلا يباشرون حدادا على المتوفى أزواجهم حتى سنة بكاملها، ولا يأكلون اللحم، ولا يمضغون پان ولا يهتمون بتزيين الشعور ولا تقليم الأظفار.

— عائلة نائر تورث الأولاد من الأرحام ولا تورثها من الأصلاب، فيرث عندهم كل من له صلة القرابة من الأم. وترث الأخوات والأولاد من الخال وغريب أن مسلمى كنور وما حولها كذلك يعملون، وهم يتلون القرآن ويصومون ويصلون، وفيهم من القراء والحفاظ وعلماء الدين.

— البراهمة، والسائعون، والنجارون، والحدادون، والمحترفون بالألاعيب والمشعوذون يعاكسون نائر، فيورثون الأولاد وينكحون النساء. وليس عمل النكاح

عند نائر إلا أن يربط الرجل خيطا فى رقبة المرأة فهى تختص له.

ـ الولد الأكبر فى البراهمة هو الماذون لأن ينكح، وليس لأخيه الصغير فى ذلك من حق إلا بعد ما يتحقق علنا أن ازدواج أخيه الكبير غير مثمر. وذلك مخافة كثرة الورثاء وازدياد الخصومات وراء الارث. فلا يمنع الأخ الصغير إذن أن يتصل بنساء نائر وبناتها اتصالا غير شرعي، لأن الأولاد منهن لا تستحق الارث. والبراهمة يعددون الأزواج، فيتخذ واحد منهم من أقربائه، ومن قبيلة نائر عدة أزواج فى وقت واحد. ويحددون للأزواج أيامهم كالمسلمين وقاية للخلاف المنزلى وما يتبعه من مرارة العيش.

ـ والنجارون والحدادون والصائغون كذلك يعددون الأزواج، ولكنهم لا يتزوجون دون أقاربهم حرصا على الارث. وهؤلاء لا يلبسون إلا ما يستر عوراتهم، فهم عراة بالتقريب رجالا ونساء فقراء وأغنياء. ونساؤهم لا يبرزن أمام نساء البراهمة. ورجال نائر يتقدمون بنسائهم بمناسبة الاجتماعات والأعياد، وهن متبرجات بالزينات مزدانات بأدوات الجمال ليتمتع الناس بما فيهن من الحسن والجمال.

ـ يرث الأملاك فيهم من كان كبيرا فى العائله. فان كان سفيهاً أو ضعيفا أو أعمى، وله من خاله أولاد مفقود والخبر، فأكبر العائلة ينتقل ذلك الكبير عاجلا إلى السيطرة على الأملاك. وإذا فقد الوارث فيتبنون أحدا من الأجانب ويورثونه بدل الأخ والابن وابن الأخت، ولا يفرقون بين المتبنى والوارث الصادق فى أمور الوراثة. لا يستثنى من ذلك الملك ولا عامة الناس رفيعهم ووضيعهم.

ـ فيهم طبقة الأشراف وطائفة الأرازل. فاذا ما مس أحد من طبقة الاشراف رجلا من الأدنياء أو اقترن به أو أكل مما طبخته أيدى الأرازل. فيجب عليه الغسل وعليه أن لا يأكل قبل أن يغسل. ومن فعل فقد انحدر إلى الوهدة

وسقط ، ولا ملجأ له إلا أن يفر إلى الذين لا يعلمون من أحواله شيئا . فان فعل ذلك ولد أو فعلته إمرأة فعلى حاكم البلد أن يعتقلهما ويرسل إلى السجن، أو يبيعهما على يد الذى يكون دونه منزلة .

٢ — الأعلام بأعلام بيت الله الحرام — لواضعه قطب الدين أحمد بن علاء الدين أحمد النهروالى . وقد أرتحل أبوه إلى الحجاز ونزل مكة واستوطنها فتولد هناك قطب الدين سنة ١٥١١-٩١٧. وعندما أتم دروسه فى مكة سافر إلى مصر سنة ١٥٣٦ - ٩٤٣، حيث لم يطل مكثا على المطالعة والدرس لدى العلماء البارزين فى عصره فى مصر. وما هى إلا أيام قلائل حتى حل محل أجلة العلماء هناك وأتبع بعد ذلك أن عين كمعلم للعلوم الدينية فى إحدى جوامع مكة ثم شغل مركز الافتاء. وقد توفى سنة ١٥٨٢- ٩٩٠. وكتابه هذا كتاب حافل بتاريخ مكة ، مبسوط يتضمن على مقدمة وعشرة أبواب وملحق. وقال فى المقدمة يذكر مصادر كتابه أن أقدم مورخى مكة أبو الوليد محمد ابن عبد الكريم الأرزقى وفيما يلى فهرس مواضيع الكتاب، وهى تنطق عن مستوى الكتاب السامى .

الباب الأول فى جغرافية مكة وكعبة .

الباب الثانى فى تأسيس كعبة وتشييدها .

الباب الثالث فى وصف مسجد الحرام أيام الجاهلية وأوائل عهد الاسلام.

الباب الرابع فى اضافات بنى العباس إلى المسجد .

الباب الخامس يختص بذكر ما بدأ به المنصور من الزيادة وأتمها ابنه الهادى فى أواخر أيام بنى العباس .

الباب السادس فى الاصلاحات التى قام بها الچراكسه .

الباب السابع فيما يتصل من الأحوال بالمسجد أيام العثمانيين .

الباب الثامن فى أحوال المسجد أيام السلطان سليم الأول .

الباب التاسع فيما يتصل به أيام السلطان سليم الثانى.
الباب العاشر فى أحوال المسجد أيام السلطان مراد.
الملحق فى ذكر أحوال الأماكن المهمة المقدسة فى مكة.

وقياما بالواجب نحو تاريخ الكعبة كليا وضع الواضع خطوطا كبرى لتاريخ المسلمين منذ عهد النبي إلى أيامه.

٣ — البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، كتاب للواضع نفسه. ينطق عن الوقائع التاريخية التى حدثت فى اليمن أيام الواضع فاتحة القرن العاشر إلى سنة ٩٧٩ من الهجرة. وهو موزع على ثلثة أبواب وخاتمة. فالباب الأول المشتمل على ١٣ فصل يبحث عن تاريخ ملوك اليمن منذ بداية القرن العاشر الهجرى حتى انتصار الأتراك العثمانيين على اليمن. والباب الثانى المتضمن على ٣٧ فصل يذكر عن تاريخ اليمن منذ انضمامها إلى حكم العثمانيين إلى أيام سليمان. والباب الثالث المحتوى على ٦٠ فصل يحدث عن شئون البلاد وأحوالها أيام السلطان سليم. والخاتمة وفيها خمسة فصول تبحث عن تاريخ الأيام التى عاد فيها سنان باشا إلى مصر وفتح تيونس.

واعترف العلماء الغربيون ما لهذا الكتاب من الاعتبار والأهمية. فقد رتبه الأستاذ ويستن فلد وتقحه مع كتاب من مثله. وأما أن الواضع ولد خارج بلاد الهند وتأدب، فهل لنا أن نعد كتابه كتبرع من الهند إلى الأدب العربى؟ يسعنا أن نقول إن صاحب الكتاب من أولئك الذين ولدوا خارج بلاد الهند وترعرعوا، ولكن عروقهم يجرى فيها دم هندى.

٤ — ظفر الواله بمظفر وآله، كتاب فى تاريخ گجرات، وضعه صاحبه فى غضون عشرة سنوات الأولى من القرن السابع عشر الميلادى. وهو عبدالله محمد بن عمر النهروالى الآصفى الغ خانى المعروف بـ حاجى دبير، وكان من رجال أواخر القرن

العاشر وأوائل القرن الحادى عشر من الهجرة. ولد فى مكة سنة ١٥٤٠-٩٤٦ بالتقريب، فأتى الهند فى ١٥٥٥-٩٦٢ وكان ابن السادس والعشر، وانضم فى الصف الموظفين لدى استاده الأول ألغ خان قائد القوات الحربية فى گجرات لعماد الملك سنة ١٥٧٢-٩٨٠. فلما دخل الملك أكبر مدينة أحمدآباد عاد ألغ خان اسيرا. وأصبح صاحبنا واضع الكتاب عاطلا وظل بلا عمل إلى أن وكل إليه فى العام التالى أن يذهب بأموال الوقف من گجرات إلى مكة ومدينة. ثم عاد إلى الهند سنة ١٥٧٥-٩٨٣— موظفا عند سيف الملك. وتعلق متأخرا بفولاد خان القائد الشهير لخانديس. لا يعلم تاريخ وفاته بالقطع غير أنه كان يحى فى سنة ١٦١١-١٠٢٠.

والكتاب جزءان عبر الواضع عن كل جزء بدفتر، فالدفتر الأول فى تاريخ الملوك المظفريين فى گجرات الذين حكموا البلاد منذ ٧٩٩ إلى ٩٨٠ من سنوات الهجرة (١٥٧٢-١٣٠٦). وفيه كذلك بحث عن تاريخ ملوك خانديس ودكن. والدفتر الثانى يتضمن التاريخ العام للحكومات التى قامت فى شمال الهند منذ القرن الثانى عشر إلى السادس عشر الميلادى. وأول من أدرك من الكتاب مبلغه وقدر منه مستواه هو المستشرق الشهير «ڈنس روز» الذى نقحه ورتبه فى ثلاث مجلدات. مصدرة كل مجلد بمقدمة علمية. وقد قال تعليقا على الكتاب:

«ستجده أكثر من كتاب فى تاريخ الملوك بكثير، وجل ما فى المجلد الأول بعيد عن التاريخ منحرف عن السير والسوانح. فقد يصل الكتاب بالقارى من ناحية إلى فاتحة عهد الاسلام ومن ناحية أخرى يتقدم ناظره إلى بداية القرن السابع عشر».

ويقول الأستاذ فى محل آخر عن الكتاب:

«مع أن الواضع خليط الهند والفارس أرومة فقد أتى أسلافه إلى الهند

أيام اقتحام التتار وتوغلهم فى القرن الثالث عشر، إلا أن لغته الأمية كانت عربية وإنما تعلم الفارسية بعد ما نزل الهند. وهذا ما يجعل الكتاب ذا مركز من ناحيتين: ناحية أسلوبه العربى الناطق أن لغة كاتبه لغة من ولد فى مكة وترعرع فيها مع ما فى الكتابة بعض الأهمال، وناحية الصحة فى الأسماء الفارسية والهندية. فكاتبنا الأجانب أشد اعتناء بالتهجى الصحيح وبتشريحه فى أكثر المناسبات».

﴿ كتب التاريخ ﴾

١ — النور السافر عن أخبار القرن العاشر، كتاب واحد جدير بالذكر تحت العنوان. وهو لكاتبه محى الدين عبد القادر العيدروس من أحمدآباد، أحد أفراد عائلة عيدروس النبيلة اليمنية. غادر أبوه اليمن وأتى الهند سنة ١٥٥١-٩٥٨ ونزل أحمد آباد حيث ولد واضع الكتاب فى سنة ١٥٧٠-٩٧٨. كانت أمه جارية هندية أهداها إلى أبيه أحد تلامدته. تأدب محى الدين وقرأ على العلماء البارزين من الهند واليمن، فأصبح عالما متضلعا وكاتبا خصيبا، واشتهر فى سلوكه مسالك التصوف والعرفان. وقد وضع من المؤلفات والكتب ما يقرب عشرين. وهذا الكتاب الذى نبحث عنه هو تاريخ ما وقع فى القرن العاشر الهجرى كما ينطق بذلك اسم الكتاب نفسه. وهو يماثل ما كتبه الأقدمون، كالدرة الكامنة فى القرن الثامنة لابن الحجر، وكالضوء اللامع فى القرن التاسع للسخاوى، فارق فى الاتهاج خفيف وفاصل فى مجال الفكر ضعيف. فالكتابان المذكوران يقتصران دون ذكر نبذة من أحوال العلماء الذين ماتوا فى القرن الثامن والتاسع، وما كانوا يحملون من الجدارة والفضل فى الدين، على ترتيب حروف الهجاء فى أسمائهم. وأما كتاب النور السافر فهو يذكر العلماء طبق أدوارهم فى التاريخ، ولا يقف على ذكر ما منح لهم من الأحوال من ناحية حياتهم وفضلهم فى العلوم

والآداب، بل يتقدم فيقول عن الجو السياسي والظروف المحاقة بالمجتمع كذلك.

وقصارى الكلام أن الكتاب كحلقة ثمينة متوسطة تتقدمها حلقتان. الدرر الكامنة والضوء اللامع وتلحقها حلقات كتاب خلاصة الآثار، وسلك الدرر، وعجائب الآثار. ومما هو جدير بالذكر أن هناك بضعة مؤلفات ما عدا «النور السافر» وضعها كاتبوها في سير رجال العلم وأحوال الشخصيات البارزة من العهد نفسه بالتقريب. ومنها كتاب «الكواكب السائرة بمناقب علماء المأة العاشرة» وحيث أنه لم يزل مخطوطا غير مطبوع نطيل به الكلام.

فقد قال الواضع في مقدمة الكتاب أنه أتى فيه بتاريخ العلماء ومشائخ السلوك والقضاة والملوك والأعيان، من مصر وسوريا والحجاز واليمن والروم والهند، وذكر مهم النوادر وطرف الكلام. وصرح في مقدمته أن كتابه لا يستقصى الوقائع من القرن تماما ولا يستوعبها لعدم وقوفه بها بأجمعها. ومع أنه حذف من كتابه أكثر مما ذكر يقول على سبيل الاعتذار على عمله القاصر «من لا يدرك الكل لا يترك الكل».

وبدأ بتاريخ السيرة النبوية كالجزء الرئيسي للموضوع متوسلا إلى رحمة الله وبركاته. ثم استأنف كتابه من سنة ١٤٩٥-٩٠١، وأتمه إلى سنة ١٥٩١-١٠٠٠. وها دونك فيما يلي أسماء بعض العلماء والأعلام الذين كتب الواضع عنهم ملاحظات تاريخية وهم كثيرون:

١ — السخاوي المتوفى ١٤٩٥-٩٠٢ واضع كتابه الشهير الضوء اللامع وهو قص، مبتور.

٢ — جلال الدين السيوطي الشهير المتوفى ١٥٠٦-٩١١.

٣ — الشيخ عبد الله والد جد واضع الكتاب المتوفى ١٥١٣-٩١٩.

٤ — ابن السويدا محدث عصره الجليل، وكان من أعيان بطانة السلطان محمود ملك گجرات الذى لقبه بملك المحدثين. وتوفى سنة ١٥١٣-٩١٩.

٥ — أحمد بن محمد القسطلانى صاحب كتاب المواهب اللدنية دائرة معارف السيرة النبوية المتوفى ١٥١٧-٩٢٣. ويحكى الواضع عن القسطلانى أن العلاقات بين السيوطى وبينه لم تكن ودية. فقد كان السيوطى متأسفا على أن القسطلانى كان ينقل دائما عن كتابه من غير أن يذكر من اسم الكتاب كالمرجع له. وعندما كان السيوطى على فراش الموت أتاه القسطلانى وقرع الباب وسئل من القارع؟ فأجاب إنه حضر حافى القدم عارى الرأس، ويرجو التوفيق والتصالح. فرد إليه السيوطى المشرف على الموت أنه صالحه. ولم يفتح له الباب.

٦ — جلال الدين الدوانى من أجلة العلماء فى عصره، وقد أخطأ الواضع فى تاريخ موته إذ كتب ١٥٢١ — ٩٢٨ والحال أنه توفى قبل ذلك لعشرين سنة.

٧ — المزجد صاحب «العباب» كتاب شهير فى الفقه الشافعى.

٨ — بحرق الحضرمى عالم وشاعر، ارتحل إلى الهند واتصل بالبلاط الملكى عند السلطان مظفر الدين فى گجرات، وقد كتب له كتابا فى السيرة النبوية وسماه «تبصيرة الحضرة الشاهية الأحمدية. سيرة الحضرة النبوية الأحمدية».

٩ — ابن الحجر الهيثمى شارح المشكوٰة، المتوفى ١٥٦٦-٩٧٤.

١٠ — على المتقى المتوفى، ١٥٦٧-٩٧٥، عالم هندى شهير. وقد عرفناه كل المعرفة فيما مضى.

١١ — أيام ١٥٧٠-٩٧٨ وهى كانت أيام ولادة الواضع، فقد أسهب الكلام

عن أحوال ولادته واكتسابه العلم والأدب وكتبه التى وضعها، ثم يقول بكل بساطة وصراحة إن أمه كانت جارية هندية لم تلد بعد.

١٢ — محمد ابن الطاهر، وقد علمناه، وكان حقا ملك المحدثين فى الهند توفى ١٥٧٨-٩٨٦.

١٣ — عبد النبى، عالم جليل من أعيان بطانة الملك أكبر، وحدث أن غضب الملك عليه بعد برهة من الزمان. توفى ١٥٨٢-٩٩٠.

١٤ — قطب الدين نهروالى، وقد سبق أن ذكرناه. وكان شاعرا مجيدا سوف نذكر شطرا من قصائده الطويلة فى هذا الكتاب.

١٥ — حكيم (الطبيب) شهاب الدين محمود بن شمس الدين السدهى المتصل بالبلاط الملكى فى گجرات، يحكى الواضع عنه حكاية ذات عجب. وهى أنه أهدى أحد من الملوك إلى السلطان محمود من الهدايا الثمينة والتحف الغالية وفيها بنت جميلة وهبها الملك لأحد وزرائه، وحدث قبل أن يمسها الوزير جس الطبيب نبضها فاستدرك على فوره أن البنت أطعمت إبان تربيتها أغذية مسمومة، وأن من يباشرها يتبعه الموت على كل حال. فقاموا بالاختبار توا، فعلم الذين حضروا هناك معجبين محتارين صدق ما كاشف به الطبيب حقا. وعندما سئلوا عن علة هذا الوصف الغريب قال الطبيب إن أمها اقتاتت وهى حاملة بالأعشاب السامة.

وهكذا يذكر الواضع عن المزايا المهمة والأوصاف النادرة لرجال العلم والآداب الذين أوردهم فى كتابه. وأما الملوك وكبار العلماء الذين لهم صيت عالمى وصوت دوى، وقد ذكرهم الواضع فى كتابه فنذكر هنا منهم أسماء البعض:

١ قائت بے، ملك مصر المتوفى ١٤٩٥-٩٠١

٢ محمود بن محمد ملك گجرات المتوفى ١٥١٠-٩١٦
٣ مظفر شاه الثانى ملك گجرات المتوفى ١٥٢٦-٩٣٢
٤ بهادر شاه الثانى ملك گجرات المتوفى ١٥٣٦-٩٤٣
٥ محمود شاه الثانى ملك گجرات المتوفى ١٥٥٣-٩٦١
٦ محمد شاه الثانى ملك گجرات المتوفى ١٥٥٩-٩٦٧
٧ خداوند خان، المتوفى ١٥٦٠-٩٦٨
٨ قطب شاه سلطان گولكنڈه المتوفى ١٥٨٢-٩٩٠.

وأما الأحداث السياسية التى كتبها الواضع فنذكر هنا بعض الاشارات منها:

هجوم همايون على گجرات وكيف إنهزم بهادر شاه بخيانة مصطفى بهرام وغدره.

إياب آصف خان من مكة وتقلده منصب الوزارة إلى أن قتل هو والملك أيام ١٥٥٣-٩٦١

سقوط ڈيو فى أيدى پرتگيز فى سنة ١٥٥٣-٩٦١

انتصار الملك أكبر على گجرات أيام ١٥٧٢-٩٨٠. يقول الواضع عن أكبر أنه كان ملكا عادلا، بارا ولكن فى الوقت نفسه كان يميل إلى الدعة فى الدين. وراد على ذلك «وفى الاشارة ما يغنى عن الكلام».

وقائع أحمدآباد وأحوالها ومن أسس بنيانها.

سيطرة مظفر بن محمود، على أحمدآباد، وبهروچ، وبروده من جديد بعد أن طرد جنود المغول وقلها أيام ١٥٨٣-٩٩١.

وهناك منعطفات ممتعة فى الكتاب بجنب هذه الملاحظات التاريخية والتقارير الموجزة عن الأحداث السياسية جديرة بالذكر، فنها:

شئون حضر موت وأحقاف وسبا وإرم ذات العماد، وأحوالها من ناحية التاريخ والجغرافيا. وتأسف «صالح» و «هود» عليهما السلام.

أحوال عن وقوع الزلزلة فى أرض عدن، وحدوث الحريق فيها أيام ١٥٠٨ - ٩١٤.

الكلام على امكانية المعجزات.

مقالة على القهوة.

ويجد الواضع راغبا إلى الشعر تواقا، لكونه شاعرا. فقد أكثر من الاقتباسات البديعة والمختارات الرائعة من كلام الشعراء والعلماء الذين يذكر عنهم فى الكتاب، وله فوق ذلك متسع من القول فى الحكاية عن شئون عدن، وحضرموت، واليمن لاتصاله المتواصل بالقطر الجنوبى العربى.

وأما دقة الضبط فى التاريخ والاتقان فى الصحة فيصعب علينا الارتياب فى ذلك، إلا أن الواضع أخطأ فى كتابة التاريخ عن وفاة جلال الدين الدوانى صريحاً حيث قال أنه توفى ٩٢٨. والحال أن وفاته وقعت بالضبط فى سنة ٩٠٨، وتبين لنا أن الخلاف بين الواضع وبين «لين پول» طفيف، يسير، فى محلين أو ثلاث، فعلى سبيل المثال توفى محمود بن محمد ملك گجرات فى ٩١٦ على ما كتب الواضع. ولكن لين پول يذكر فى كتابه (Muhammadan Dynasties) عن وفاته متأخرا عنه بعام، وكذلك وفاة أحمد شاه، فيذكر كتاب النور السافر عنها سنة ٩٦٧ ويقول لين پول أنه توفى سنة ٩٦٩.

ومما هو جدير بالذكر أن السيد محمد ابن أبى بكر الشيلى المتوفى ١٦٨٢-١٠٩٣ كتب ملحقا لهذا الكتاب وسماه «الثناء الباهر فى تكميل النور السافر». ولا تظن أن السيد كتب هذا الملحق ليسد ثغرة من القصور فى الاتقان أو الافادة. وإنما

كتبه كما هو يقول نفسه مدفوعا بأن الواضع حذف من أكثر العلماء الجديرين بالذكر سيرهم وأحوالهم.

وأما أسلوب الكتاب وعربيته فبسيط فى غاية السلاسة، بعيد عن التعقيد والالتواء، يشهد بذلك كل أحد. وقد وقع الفراغ من الكتاب يوم الجمعة فى الثانى عشر من شهر ربيع الثانى ١٦٠٣-١٠١٢.

ولعل كتاب النور السافر أحرى أن يهذب ويرتب على النمط الأروبى العلمى. وقد نقح مستر كرانكو كتاب الدرة الكامنة، الحلقة الأولى من هذا القسم وهذبه، ومخطوطة «الضوء اللامع» ناقصة إلى حد بعيد. وأما الحلقات اللاحقة للنور السافر وملحقه فقد طبعت ونشرت، فلم يبق إذن إلا «النور السافر».

﴿ الكتب على السيرة النبوية — ٢ ﴾

١ «اتحاف الحضرة العزيزة لعيون السيرة الوجيزة» لمحى الدين عبد القادر واضع كتاب النور السافر. وهو كتاب مقتضب فى سيرة النبي وسير أصحابه صلى الله عليه وسلم، لا يتحصص بما يذكر غير أسلوبه الواضح فى البيان والمقتصد فى التعبير، فهو مما قل ودل، ومماثل لما كتبه مشائخ الطرق. وكتاب السلوك منقسم إلى جزئين وخاتمة، فالجزء الأول يبحث عن سيرة النبي فى أربعة فصول، والجزء الثانى يتضمن عشرة فصول يتكلم عن سيرة العشرة. المبشرة. وأما الخاتمة فهى فى فضائل الصحابة ومزاياهم رضوان الله عليهم أجمعين.

٢ «السيرة المحمديه» لواضعه كرامت على بن فاضل محمد حيات على. وهو كتاب ضخم يستغرق ستمائة صفحة، مطبوع طبعة حجرية، وكل صفحة تحمل خمسة وثلاثين سطرا تقطع ١٥ بوصات. وضع قبيل الثورة، ثورة الجنود على القواد بتعضيد من نظام حيدر آباد، وقد أهدى الواضع إياه إلى جلالته. وليس الكتاب عبارة

عن التأليف فحسب أو الترتيب، فقد كابد الواضع وكافح أشد العناء وراء تنقيب الروايات وفحص الحوادث التي أتى بها وأوردها في كتابه، فلو أنه ليس عملا إنتقاديا على مستوى التنقيبات العصرية، ولكنه في الوقت نفسه يخلو كلياً من الأحاديث التي يراها العلماء أنفسهم موضوعة منتحلة، ونرى الواضع يتكلم عن وجوه الاختلاف في الخلافات، ورائده بصيرته الناقدة الوقادة. والجزء النهائي من الكتاب يحتوى على سير الخلفاء الأربع وسوانحهم.

ولعل الكتاب المواهب اللدنية من أهم ما ألف وكتب في السيرة النبوية من وجهة نظر المسلمين. ولكن «السيرة المحمدية» الكتاب الذي نحن بصدده ينوب عنه ويحل محله من ناحية الاتقان والتفكير الانتقادي. وأنشد أحمد على عباس چرياكوتي، وكان عالما معاصرا وشيخا لطالب كالشبلي الكاتب البارع، قصيدة طويلة يمدح فيها كتاب السيرة المحمدية، ومنها:

لا تعجبوا إن على كتب الدين مضوا ٭ فان للخمر معنى ليس في العنب

والعجز في الشعر للشاعر الشهير المتنبي كما لا يخفى.

﴿ كتب في السوانح — ٥ ﴾

١ «الروض الناصر في من إسمه عبد القادر» لعبد القادر العيدروس المذكور آنفا. وهو كتاب مفهوم من إسمه، أنه في أحوال أولئك العلماء الذين سموا بعبد القادر. والذي يعلمه كاتب هذه السطور إنه أول كتاب من نوعه، يتضمن سوانح أربعين رجلا من العلماء المسمين بهذا الاسم.

٢ «زهر الرياض وزلال الحياض» لكاتبه حسن بن على بن شادكام، وهو عربي أصلا ولد في المدينة المنورة، ثم حدث له أن أتى الهند واتصل ببلاط «نظام شاهي» في أحمد نكر حيث أصبح صهر الملك، فارتفع بذلك شانا ونبلا مركزا

ولكن سقوط البيت أسقطه وأهبط به حتى غادر الهند قاصدا بلاده. ولكنه ما لبث أن رجع إلى الهند. وفاته مجهولة التاريخ لم تعلم بعد. وكان عالما وقريضا يذكر عنه كتاب سلافة العصر وعن أشعاره. وله غير هذا الكتاب كتاب آخر سماه «الجواهر النظامية».

وأما كتاب «زهر الرياض» فقاموس السير والسوانح ضخم مرتب على ترتيب حروف الهجاء، وأسلوب تحريره بسيط، سهل، ولو أنه نوع من التأليف أو كخلاصة من المؤلفات المسبوقة كوفيات الأعيان وأمثالها بزيادات من مصادر أخرى فلا ينقص ذلك من شانه، فهو يشتمل على نواحى التاريخ والجغرافيا واللغة والآداب ما عدا أطراف السوانح والسير.

٣ «سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر» لكاتبه السيد على صدر الدين بن أحمد نظام بن معصوم المعروف بين الناس بالسيد على خان أو ابن المعصوم. وهو من أقرباء الفلسفى الشهير غياث الدين المنصور الشيرازى. ولد فى المدينة المنورة فى ١٦٤٢—١٠٥٢ وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره، اتصل بأبيه نظام الدين أحمد وكان من حماة سلطان عبد الله قطب شاه فى حيدرآباد. ثم فقد أباه بعد عام عندما توفى ذاك الملك أيام ١٦٧٢—١٠٨٣ ووقع اسيرا فى يد السلطان الجديد أبى الحسن، ولكنه أفلت من السجن بحيلة ما ووصل إلى الملك عالمگير الذى رحب به وأنعم عليه بلقب «خان» وجعله موظفا بدار القضاء فى برهان پور، ومن هنا سافر إلى فارس فى أواخر أيامه، ونزل شيراز حيث توفى ١٧٠٥—١١١٧—وكان عالما جليلا متضلعا فى فنون الشعر وفى الآداب العالية وصنف عديدا من الكتب.

وكتاب سلافة العصر مثل كتاب النور السافر حلقة ثمينة من قسم السوانح

والسير المختص للشعراء. بدأ الواضع بالثعالبي[1] ١٠٣٧ — ٤٢٩ — المتأخر بستة قرون واقتفى أسلوب كتابه الشهير يتيمة الدهر، واستمر يذكر عن الشعراء حتى انتهى إلى الحرارى ١٠٧٤ — ٤٦٧ والأصفهانى ١٢٠٠ — ٥٩٧ تحت عنوان دمية القصر وخريدة القصر على الترتيب. والحق أن كتاب سلافة العصر هو كملحق لكتاب «ريحانة الالبا» لشهاب الدين أحمد الخفاجى المتوفى ١٦٥٨ — ١٠٦٩. يقول الواضع فى مقدمة الكتاب إنه كان يشعر برغبة صادقة فى نفسه منذ أيام طوال أن يساهم فى الأدب بكتابة المقالات عن عبقرية الشعر فى عهده، عهد القرن الحادى عشر على منوال يتيمة الدهر ودمية القصر. ولكن حالت دون رغبته العقبات والعراقيل إلى أن تناول من كتاب ريحانة الألبا نسخة كانت بغية يتمناها، فقد وجدها مرتبة حسب الترتيب الذى كان يرسم له فكره، وكل ما كان ينقصه هو خلوه عن بعض الشعراء المجيدين فقام بالأمر نشيطا ليملأ ذاك الفراغ وبدأ يكتب هذا الكتاب فأتى أولا بذكر الشعراء النادرين من القرن الحادى عشر من فات صاحب ريحانة الألبا أن يذكر عنهم، وذكر ثانيا عن فترة ١٣ عاما الواقعة بين وفاة شهاب الدين الخفاجى وبين كتابة سلافة العصر ١٦٧١ — ١٠٨٢ — وزاد فوق ذلك أن ذكر عن الشعراء الذين كتب عنهم الخفاجى وأتى بأشعارهم التى لم يأت بها الخفاجى.

والكتاب مرتب وفق ما يأتى:

شعراء مكة والمدينة.

شعراء مصر وسوريا.

شعراء اليمن.

شعراء العجم — العراق والبحرين.

شعراء المغرب.

---

١ — واقتفى الثعالبى فى أسلوبه أثر هارون بن على المتوفى ٩٠٠ — ٢٨٨ فى كتابه «البارع» أنظر الخا. ١١

فمجموع المذكورين فى الكتاب من الشعراء مائة وأربع وعشرون شاعرا، ستة مهم هنديون أو متصلون بالهند. وليس الكتاب بديوان الشعر ولا غير بل هو كتاب يحمل السير والسوانح كذلك بين أوراقه، والتعليقات المذكورة فيه عن الشعراء والملاحظات هى أطول وأوفى مما ذكر فى يتيمة الدهر ودمية القصر، ولكن المأخوذ على الكتاب أسلوبه المنمق المزخرف فهو الذى حال دون أن يقرأه الناس ويتمتعوا به.

٤ «الدرجات الرفيعة فى طبقات الامامية من الشيعة» للواضع نفسه جمع فيه سوانح رجال بارزين من الشيعة منذ أوائل الاسلام إلى فواتح القرن الحادى عشر من الهجرة. فقال فى مقدمة الكتاب إنه لم يكن ثمة أى كتاب يبحث عن أحوال الأجلاء من الشيعة، فرأى تأليف مثل هذا الكتاب. وأما «مجالس المؤمنين» لنور الله السوشترى الكتاب الموضوع للغاية نفسها فمأخوذ عليه من ناحيتين الأولى أن سوشترى عد كثيرا من الرجال خطأ على حساب الشيعة وما هم منهم، والثانية أن لغة كتابه فارسية وليست عربية.

ويقسم الكتاب إلى اثنتى عشرة طبقة، فالطبقة الأولى المتضمنة على أربعة مقدمات وبابين تبحث عن الصحابة وها دونكم عناوين مطويات الكتاب نقدمها نظرا إلى أنه ما انطبع ولم يزل مخطوطا:

الطبقة الأولى:

المقدمة فى تعريف الصحابى.

المقدمة فى مركز الصحابى وموقفه.

المقدمة انقسام الصحابى إلى المقبول والمردود.

المقدمة فى الصحابة الذين قاموا بجنب على واستقاموا نهائيا.

الباب الأول — الصحابة الهاشميون.

الباب الثانى — الصحابة غير الهاشميين.

الطبقة الثانية — فى التابعين.

٣ — فى المحدثين الذين يروون عن الأئمة مباشرا.

٤ — فى علماء الدين.

٥ — فى الفلاسفة والمتكلمين.

٦ — فى علماء اللغة العربية.

٧ — فى شيوخ الطرق والمتصوفين.

٨ — فى الملوك والسلاطين.

٩ — فى الأعيان والأشراف.

١٠ — فى الوزراء.

١١ — فى الشعراء.

١٢ — فى النساء.

ولا تجد مخطوطة هذا الكتاب مهما بالغت فى فحصك عنها فى القائمات المطبوعة لأمهات المكتبات عدا مكتبة برلن. ففيها نسخة منها. وهى كذلك مبتورة تحمل بين أوراقها طبقتين: الطبقة الأولى والرابعة فقط.

٥ — «سبحة المرجان فى آثار هندستان» للسيد غلام على آزاد البلكرامى. وهو أحد الأعضاء من عائلة السادات الواسطية المقيمة فى بلكرام. ولد فى سنة ١٧٠٤-١١١٦ وظل أبوه نائبا فى بهاكرا وسستان إلى سبع سنوات، وقد ناب عن والده فى سستان من ١١٤٢ إلى ١٧٣٤-١١٤٧، ثم سافر إلى مكة حاجا فى ١٧٣٧-١١٥٠. وأقام هناك مدى عامين أتم فى غضون تلك الأيام دروس الحديث على محمد حياة السدهى وعلى عبد الوهاب. وبعد ما رجع إلى الهند نزل أورنك آباد واتخذه مقرا، وكان من حماة أشداء لنظام الدولة ناصر جنگ

وأخيه، وأبى أن يقبل منه أى منصب فى الحكم. وتوفى رحمه الله سنة ١٧٨٥- ١٢٠٠. وكان عالما بارعا متضلعا فى العلوم الاسلامية، أخذ صناعة الشعر من جده الأمى السيد عبد الجليل البلگرامى. وليس بالاسراف ولا التمادى أن غلام على آزاد هو الوحيد فى شعراء الهند الذى ترك سبعة دواوين فى الأشعار باللغة العربية، وصنف عديدا من الكتب فى اللغتين: الفارسية والعربية.

وهذا الكتاب الناطق باسمه موضوع أبحاثه، موزع على أربعة أبواب. الباب الأول يبحث عن الشهادات من كتب التفاسير والحديث على فضائل الهند ومنزلتها الرفيعة. فقد استشهد الواضع بعدة أحاديث وتعليقات المفسرين المتصلة بحكاية آدم وحواء وهبوطهما من الجنة على جبل سيلون المسمى بجبل آدم.

والباب الثانى يذكر عن سير رجال العلم من المسلمين، ويرسم صور حياتهم فى الهند. وهذا الباب بما فيه من الأبحاث القيمة يفوق الكتاب كله. وهو يتضمن ٤٣ ملاحظات عن الشخصيات مرتبة على أدوار تاريخية، فبدأ الباب ببعض ما جرى لأبى حفص ربيع، تبع التابعين، الذى ارتحل إلى السند وتوفى هناك ٧٧٦- ١٦٠. وألحق الواضع بالباب بعض وقائعه، فسبحة المرجان ليس من أهم المصادر لمقالاتى هذه فحسب، وإنما هو مأخذ قيم لجميع الكتب المماثلة الموضوعة فى الأيام الأخيرة كأبجد العلوم، وتذكرة علماء الهند. وكتب صاحبنا على الموضوع نفسه كتابا آخر باللغة الفارسية سماه «مآثر الكرام» قاصدا على وجه العموم أن يذكر من رجال أكفاء بارزين فى العلوم وفى التصوف من أرض بلگرام مسقط رأسه. ولكن الكتاب شمل مائة عداهم ما وخمسين شخصية من مختلف أكناف الهند وأقطارها.

والباب الثالث فى بيان المعانى والبلاغة، وذكر براعة اللفظ وجمال النظم. فقدم الكاتب فى ذلك ببعض الابتكارات، سنبحث عنها فى الكلام عن اللغة وعن المعانى والبيان.

والباب الرابع فى البحث عن الحب من وجهة نظر العرب من ناحية، ومن الاتجاه الهندى من ناحية أخرى.

والحق أن الباب الأول كان من مطويات كتاب آخر للواضع باسم «شمامة العنبر» ولكنه ضمه إلى هذا الكتاب كذلك:

﴿ كتب الرحلات — ١ ﴾

هناك كتاب واحد على موضوع الرحلات يفوز بالتقدير وبالاعتبار إلى الهند. كتبه الذى عاش أكثر أيام الحياة فى الهند ولو لم يكن هنديا. وسمى رحلته هذه «سلوة الغريب فى أسوة الاديب» وهو السيد على خان بن معصوم. وقد عرفناه آنفا كواضع كتاب «سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر» يصف فيه كل ما وقع له فى رحلته من مكة إلى «گولكنڈه». وكان قد دعاه أبوه الموظف لدى سلطان گولكنڈه عبد الله بن قطب شاه، وكان عندئذ فى مقتبل العمر. غادر مكة فى السادس من شعبان المعظم ١٦٥٥-١٠٦٦ ووصل إلى مقصده بعد ثلاثة أعوام فى ٢٢ من ربيع الأول سنة ١٦٥٨-١٠٦٩. وقد فرغ من كتابة رحلته بعد ١٣ سنة.

والكتاب متاع جليل يجمع بين مطوياته للانتفاع به ثلاثة إتجاهات: الجغرافية والتاريخية واللغوية. فمن الناحية الأولى يذكر الكتاب عن المعلومات والاتصالات بين بيضاء، السعدية، القنفذه — الميناء القديم لمكة حيث اليوم هناك جده — ميناء اللحية، مكران، ميناء مخا، چيتاپور، راج پور، بيجاپور، گلبرگه، گولكنڈه، فضلا على ما ذكر من جغرافية وجيزة للهند منقولا عن المسعودى، ثم يتكلم عن مزايا البحار وأنواع الأسماك، والعنبر وعن النباتات الهندية كالتوابل، والنارجيل والأنبج، والتنبول، وقصب السكر، وعن الحيوانات الهندية كالببغاوات، الطواويس، والأفيال. وعند الحكاية عن الفيل يأتى الكاتب ببعض الحقائق التى

تكشف عن الاوهام والأباطيل السائدة على عقول الناس. فيقول إن خرطوم الفيل ليس بصلد ولا جامد وإنما هو جسم مجوف، وإن صراخته ليست كصراخة الطفل كما زعموا به باطلا. وإن الفيل يستطيع الجلوس. وإن فرج الأنثى منه يكون مطروحا كالأخرى من الحيوان بين رجليه الخلفية ولا بين ساقيه الأماميه.

وأما الاتجاه التاريخي وما يتعلق بالسير والسوانح فيذكر الكتاب منه....

- موجزا من أحوال راجاوات الهند الغابرين والديانة الهندوسية مقتبساً مما كتبه الأقدمون كالمسعودى وغيره، ونبذة من أحوال الملك همايون.

- طرفا من أحوال العلماء العربيين المتصلين بالبلاط الملكى لدى سلطان گولكنڈه.

- وصف إحتفال الناس بالمآتم وحدادهم أيام المحرم فى دكن.

- وصف الحفلة الملكية بمناسبة إزدواج هارون ومأمون أيام الدولة العباسية.

وأما من ناحية اللغة والأدب فالكتاب موفور الصيب، حتى يخيل إلى القارى أنه كتاب أدبى بدل كتاب فى السوانح أو الجغرافيا، وأن ألمعية الواضع فى الشعر وكفائته في اللغة بلغت به إلى حد لم يستطع فيه وضع كتاب فى الرحلة من دون التنميق والتوشيح، إذن الكتاب أخاذ إلى أقصى حدود الأخذ، فلا يسع القارى البادى إذا كان ذا حظ من ذوق الأدب إلا أن يتواصل بالقراءة حتى يفرغ منه، وإليك بعض العناوين من هذا القسم:

- شكوى الزمان وأن الأيام كيف تدور برجال العلم وتطرحهم يعانون البؤس والشقاء.

- أنات وصرخات على الغربة وبعد الوطن.

- المناظرة بين الحل والترحال، يمثل الواضع دور المدافع عن وجوه الترحال

مستشهداً بآيات القرآن وروايات الأحاديث.

— وصف وداع مكة، وصف محزن يثير العواطف ويهيج الأحاسيس.

— فكاهات أدبية ملحة عن النقود، والأسماك، والقهوه، وريح الطن، وعجائب البحر، ورحلات بحرية، وعن السغاء والفيل. ويحكى عن القهوة رواية طريفة أنه مع صانط تركى رحلا تقيا أن يشرب من القهوة فأجاب الرجل أن القهوة ليس لك أن تذمه فهى تساوى «القوى» عدد اسم الله تعالى.

وحكى كثيرا عن الفيل، فدونك منه:

هذا هو الفيل الذى ٭ يبدو العجيب لنابه
ليل قد افترس النهار ٭ فبان فى أنيابه

وأتى كذلك بكثير من كلام الشعراء الذين قابلهم فى رحلته. والكتاب لم يطبع إلى الآن، ومخطوطته الوحيدة المعلومة موجودة فى مكتبة برلن[1].

تعريب ع٠ ح



١ — برلن رقم ٦١٣٦.